وقفة مع خطبة حجة الوداع

بقلم الشيخ محمد الغزالي

عندما أصلي على محمد أشعر بأنني أجزي الثناء الحسن لمن يستحقه ، و أنوّه بالعبودية الصادقة لمن عاش حياته يرضي ربه و يجاهد في سبيله . و أسأل ربي أن يتقبل صاحب هذه الحياة المباركة و يخلد آثاره و أن يساعدني على اقتفاء أثره و الاقتداء بسنته ..

و عندما أسلّم على محمد ، و إخوانه المرسلين أقف على أطلال ماض طويل ، و تاريخ سحيق كان رسل الله خلاله يكافحون الطواغيت و يخاصمون الجاهليات ، و قد سال عرقهم و دمهم و تغضّ جبينهم و تنكد عيشهم ، و لكنهم صابروا و تحملوا ... و بعد لأي دارت الرحى على الكافرين فحصدتهم و نجت العقائد و الشرائع و معالم الوحي الأعلى ، و خلصت الأجيال المقبلة كي ينتفعوا بها ،و يحصدوا ما غرس الأولون . و قيل بعد هذا العراك المرير "الحمد لله و سلام على عباده الذين اصطفى " و قيل أيضا " سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين ".

إنني عندما أصلي و أسلم على محمد ، أصل نفسي بأشرف ما في الوجود ، و أثبت خطوى على الصراط المستقيم، وارتضي قيادة تحتضن الحق و تؤثر الرشد، وأعلن أن هواي مع ما جاء به ...

إن الصلاة و السلام هنا توكيد منهج ، و تحمّل عبء ، و مشاركة قلبية و فكرية للإنسان الذي حرر الإيمان من الخرافة ، و نقّى الحق من الشوائب ، و ربط الفطرة السليمة بالوحي ، و صالح بين العقل و الدين ، و جعل الدنيا مهاد للأخرى .

إن محمدا ليس بشرا عاديا ... إذا كان الناس أجمعون قد خلقوا للعبادة فإن محمدا كان النموذج الأكمل للعبودية المستكينة العانية المستسلمة لجلال الله ، و إذا كانوا قد خلقوا ليظهر أيّهم أحسن عملا فإن محمدا حلق بسيرته في مستوى ترنو إليه الفلاسفة و الأبطال والقادة العظام ثم يتمنون لو أدركوا غباره ، و نضح عليهم سنامنه ... نعم ليس محمد بشرا عاديا ، و قد درست حياة رؤساء و ساسة و مفكرين و رجال حروب ، و أناسا و أتتهم الحظوظ فبرزوا و آخرين كبت بهم الحظوظ ففشلوا ...

و أبت بعد هذه الدراسة و أنا أحمل في نفسي تقديرا خاصا لمحمد النبي الإنسان ، النبي المربّي ،

النبي الذي أصلح أخطاء القرون ، و ردّ للعالم عقله الغائب ، و كثيرا ما أودع تقديري ذاك في الصيغة التي أمرنا بترديدها صيغة الصلاة و السلام على رسول الله محمد بن عبد اللــــــه ...

استصحبت هذه العاطفة و أنا أطالع الصحائف الأخيرة من السيرة الناضرة ، و أتابع الكلمــات التي قيلت في حجة الوداع ، ان الخطبة التي ألقيت في هذه الحجة لا تستغرق بضع دقائق و لكنها أهم من خطاب يستغرق بضع ساعات ، و لا عجب فصاحبها أوتي جوامع الكلم ، و أختصرت المعاني لــه اختصارا ، و الأنبياء ليسوا تجار كلام و لا عارضي أساليب ، إن اللغة على ألسنتهم قوالب للحـــق ، و أوعية للمعاني ، و شفاء لما في الصدور و ذاك حسبهم من الأداء ...

و ليس في خطبة الوداع شرائع جديدة ، انها ترديد لأحكام سبقت ، أو تطبيق لأصول تقدمت ، أو تلخيص لما استفاق شرحه ، و المراد تذكير الناس عامة بما قد يحاول الشيطـــــان زحزحتهم عنــــه أو تنسيتهـــم ايــــاه ...

و كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشعر بأنه قارب النهاية و أن الأمة التي أنشأها قد تشبثت بظهـــر الأرض و فرضت نفسها على التاريخ ، و أنتقل الأذان مع الرياح الأربع ،و توزعت جماعات الصــــلاة على أطراف الزمان ، فهي تلتقي على طاعة الله قبل طلوع الشمس و قبل الغروب ... ماذا بقي له ؟ لا يريد لنفسه شيئا ، صحيح أنه مرسل للعالمين، ليكن ، فهؤلاء الذين ربّاهم سيمدّون النور إلى ما بقى من أرض الله ، ان الجيل الذي رباه جزء من الرسالة التي أدّاها ...

من أجل ذلك كان يحدّث و في الوقت نفسه كان يودّع ، و في تضاعيف حديثه كان يفرغ كـــل ما في فؤاده من نصح و حب و اخلاص ...

و العرب قبل غيرهم من الناس أجدر أهل الأرض أن يعوا هذه الوصايا ، فإن النبيّ الخاتم عانى معاناة طويلة و هو يخرجهم من الظلمات إلى النور ، و يبرئهم من علل يكاد يكون الشفاء منها مستحيــلا ، و عندما صنع منهم بالإسلام أمة جديدة أراد أن تكون هذه الأمة عنوانا عظيما على حقيقة عظـيمة ، أي إن دعايتها للإسلام ليست نشرات مكتوبة توزعها و زارة السياحة، أو خطبا تعتمد على احصاءات مكذوبة ، أو أنباء مختلقة ..لا.لا.

ان جمال عملها بالإسلام ، و صدق بلاغها عنه هو الذي يضع لها القبول و يجمع حولها الأنصار

إن النبيّ عليه الصلاة والسلام يعرف العرب معرفة جيدة ، و يعرف أغوار الفرقة و الخصام في أفئدتهم ، و يريد اشعارهم بالنعمة التي أفاءها الله عليهم ، و لذلك يقول لهم في هذه الحجـــة حجة الوداع : " ويحكم أو ويلكم ! انظروا فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " !!

ما أغلى هذه الوصية ، و ما أبعد مداها في التاريخ لقوم يعقلون .. على أن العلاج النبوي ليس لطيش الغرائز عند جنس بعينه ، إنه لأجناس الخلق كلهم ،

و الأمر كما قلنا في مكان آخر : ان الله ربّى محمدا ليربي به العرب ، و ربّى العرب ، محمد ليربّي به الناس أجمعين « و في هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم و تكونوا شهداء على الناس »

و من ثم جاء في آخر الخطاب النبوي " ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكو أوعى له من بعض من سمعه "

و قد دخل في دين الله بعد ذلك ألوف و ألوف كانوا على اختلاف الألسنة و الوجوه أوعى و أقدر ، و لا يزال المدّ متصلا إلى قيام الساعة .

و نعرض الآن المبادئ الرئيسية في هذه الخطبة الجليلة وفق ترتيب اخترناه يناسب عصرنا

(1) الإنسانية متساوية القيمة في أي اهاب تبرز ، لا يفرق بينها سواد أو بياض، لا يفاوت بينها نسب افريقي أو أوربي ، فالنزعات العنصرية ، و النعرات الوطنية ضرب من الدجل و الافك

ومن ذكر الواقع الردئ أن نصف الحضارة الحديثة بأنها حضارة القوميات و الألوان ، و أن شعوب أوربا و أمريكا تضمر في نفسها احتقارا لأبناء القارات الآخرى، و مهما غطت هذا الشعور فهو يتنفس بقوة في مختلف المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ،و لم تفلح المواثيق النظرية في كسر شره ..

و قد نبه النبي صلى الله عليه و سلم إلى ضلال هذا المسلك في خطبة الوداع بقوله : " أيها الناس إن ربكم واحد ، و أن أباكم واحد ، كلكم لآدم و آدم من تراب ، و ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال اللهم أشهد " .

(2) و لكسب المال قصة عميقة المجرى في تاريخ البشر ، و قد راقبت الانظمة المتضادة و هي تحاول توفير الطمأنينة بين الناس ، راقبت نظام التحكير و نظام التسعير ، نظام اطلاق الملكية و تقييدها ، نظام سيطرة الفرد و سيطرة الشعب فوجدت أن النفس تدور حول أثرتها ، و لا تبالي بشيء في سبيل غايتها ..

و مالم يكن هناك إيمان بالله فإن قوانين الأرض مسرح للعبث و التظالم ، من أجل ذلك يقول الرسول في هذه الخطبة " أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ، و لا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه " لكن هذه الاشارة المجملة لا تغنى عن ايضاح أوسع يحسم مادة التظالم بين الناس في شؤون الحياة كلها فلنستمع إلى التوجيه المثير .

(3)"أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم ، وفي أي يوم أنتم ، و في أي بلد أنتم ؟ قالوا: في يوم حرام ،و شهر حرام ، و بلد حرام . قال : فإن دماءكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، و انكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم .. ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم أشهد.

لكن بعض الجبارين ، حكاما كانوا أم محكومين ، تحملهم قوتهم على اجتياح الضعفاء ، و نكبتهم في حقوقهم المادية و الأدبية ، و قد اشتعلت ثورات هائلة للثأر من الظلمة ، و وقعت حمّامات دم ، لم يكن القصاص فيها من الظلمة بقدر ما كان من ذراريهم و حواشيهم ، ثم اتسع الخرق فهلكت ألوفا مؤلفة من الأبرياء ، و قامت حكومات جديدة و نشأت أنظمة أخرى و تكررت المأساة نفسها حتى لكأن التاريخ سلسلة من المظالم من يفرّ فيها من الجناة أضعاف من تحيط بهم خطاياهم ، و سوف يبقى الأمر كذلك حتى نعي قول الرسول في هذه الخطبة "إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم " ...

(4) و كان الربا قديما رذيلة ساذجة ، أساسها امهال المعسر بثمن يسير أو فاحش ثم أمسى في المؤسسات العالمية رذيلة معقدة مدروسة تطيح فيها شعوب و جماعات .

الدولة الفقيرة الآن تريد بناء مرفق هي في حاجة إليه ، فتقترض المال المطلوب من دولة غنية ، ثم تأخذه على شرط شراء مواد البناء من الدولة المقرضة و جعل الجهاز العامل من أبناء هذه الدولة . و بعد أن تحدد سعر الفائدة الربوية كما تشاء ، تحدد أجور الموظفين من بينها ، و أسعار المواد التي تقدمها ، و تصرف القرض مائة ليعود إليها عدة مئات ..

و جمهرة الدول الفقيرة الآن معرضة للإفلاس من جراء هذه السياسة الجشعة و هي تترنح تحت وطأة الوفاء بما يبهظ كاهلها أو يقصم ظهرها ..

و وددت لو تبنّت الدول كلها مبدأ تحريم الربا ، و تقرير مصاريف ادارية معقولة للصناديق أو المصارف التي تشتغل بالاقراض ، هكذا علّم النبي البشرية من خمسة عشر قرنا عندما قال : " ... الا و إن كل ربا في الجاهلية موضوع ، و أن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون ، قضى الله الا ربا ، و إن أول ربا أبدأ به - أسقطه - ربا عمي العباس بن عبد المطلب " و كان من كبار التجار المتعاملين بالربا .

و قد رأيت أن تحريم الربا لا يستريح له إلا من خشي ربه ، و قد قال بشناعة الربا كارل ماركس ، فهل نفذ التحريم من حكم باسمه من الشيوعيين ؟ كان الروس يبيعون السلاح للدول التابعة لهم بأغلى الاسعار ، ثم يتقاضون الثمن المؤجل مضافا إليه ربا فاحش .

إن الحضارة المادية التي تقود العالم لا تعرف إلا اليوم الحاضر و الربح العاجل أما قوله تعالى : « و إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، و إن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » فحديث خرافة

(5) و صيانة الدماء قضية خطيرة ، و عندما كتب الله القصاص في القتل و الجراحات ، كان يريد زجر المجرمين عن العدوان و عندما يعلم امرؤ أنه لاق حتما المصير الذي يوقعه بغيره سيتردد طويلا في قتل هذا أو جرح ذاك ... و إذا غلبه الطيش فاعتدى فإن منظره مقتولا أو معاقبا سيوقع الرهبة في قلوب الآخرين ، و قد قيل : القتل أنفى للقتل و قال الله تعالى « في القصاص حياة » .

و أغلب الدول العظمى الآن الفت القصاص . و اكتفت بعقوبات تافهة لم تجد في حماية المجتمع ، و أصابتها حمى التقليد . فشاعت بيننا الجرائم و انشغل المظلومون بطلب الثأر لمن ينتمي إليهم أو ينتمون له .

و قد حسم الإسلام هذه الفوضى ، بشرائعه العادلة ، و يجب علينا اسدال ستارة سميكة على الانحرافات التي سادت العالم لتبدأ بعدها صفحة جديدة من تطبيق الاحكام السماوية .

و لا كرامة لباطل كما قال رسول الله في هذه الخطبة الجامعة " ألا و أن كل دم و مال و مأثرة كانت في الجاهلية ، تحت قدمي هذه ، و إن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب " قتله الهذليون في الجاهلية و كان بين ظهرانيهم - و أراد النبي الكريم أن يفتح العرب بالإسلام صفحة جديدة تجب الماضي ، و يبدأ بها عهد جديد .

(6) و تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن حقوق النساء ، و هو حديث يحتاج إليه المسلمون المعاصرون ، كما يحتاج إليه بقية الناس في المشارق والمغارب ، ذلك أن مواريث المسلمين الثقافية مثقلة بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ،كما أن الأوروبيين أسفت بهم شهواتهم إلى مدى رديء .

كان العرب لا يرون المرأة شيئا و لا يقيمون لها وزنا ، بل لعلهم حسبوها شرا لا بدّ منه . و قد لجأ بعضهم إلى قتلها و هي طفلة حسما للمتاعب و المخازي ..

و لما جاء الإسلام محا هذا المنطق محوا ، و بيّن أن النساء شقائق الرجال و أنهم سواء في تكاليف العقائد و العبادات و الأخلاق ، و أنهم سواء في استحقاق الثواب و العقاب بما يعانون من جهد في سبيل الله ، و أن الزعم بأن الذكورة تقدم صاحبها و أن الأنوثة تؤخر صاحبها لون من الكذب.

و بذلك رفض الإسلام ما كان شائعا بين العرب من ازدراء الأنوثة ، و أقام مجتمعه الجديد على قواعد أخرى ، و إن كانت الطبيعة العربية فيما بعد تمرّدت على هذه القواعد و كما ، نزعت إلى التشرذم و العصبيات و المنافرات و سفك الدم نزعت إلى حصر وظيفة المرأة في شهوتي البطن و الفرج ، و ضنّت عليها بالوجود في ميدان العلم و الثقافة و العبادة و الاصلاح و دعوة الخير التي هي الصفة الأولى للأمة الإسلامية « و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير .. »

و لا ريب أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة خطيرة لا يقبل التفريط فيها ، كما أنه لا ريب في أن المجتمع كله مطالب بصيانة الأعراض ، و منع أي عبث بها .